مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾[النساء : ٦٩-٧٠] .

فالآية معطوفة على الآية السابقة، ومعناها يشبه التأكيد لأهمية الطاعة الواعية، إذ المعنى : من يعمل ما أمره الله به، ويجتنب ما نهى الله ورسوله عنه فإن الله يسكنه دار كرامته في دار الخلد مع الذين أنعم عليهم بأعلى الدرجات وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون.

ومن كل ما سبق تتبين لنا الفوائد الجمة الخمسة التي تترتب عن الطاعة الواعية والامتثال الصادق لأوامر الله ونواهيه، كما جاءت في الوحي كله كتابا وسنة، وهذه الفوائد هي : تحقيق الخير المطلق، والثبات على الحق، والحصول على الأجر العظيم والعون الكبير من الله، والاهتداء إلى الطريق المستقيم، والمعية السامية مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وكأن الآية قالت : لو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكانت لهم هذه النتائج العليا، والدرجات الرفيعة، في بنائهم العقلي والنفسي، مما يجعل سلوكهم مستقيمًا سويًا، وفي نجاتهم في الآخرة بالفوز بالأجر العظيم والرفقة الحسنة، وهو ما تلخصه الآية في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[النساء : ٦٦] .

* * *

● **المبحث الثالث : الثبات والصبر عند الشدائد صفة الأقلية :**

يعد الثبات عند الشدائد و الصبر على البلاء سلوك حضاري إسلامي رفيع، يجعله القرآن الكريم ضمن ما يجب أن يتواصى به المؤمنون فيما بينهم، قال تعالى :﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[العصر:٣]. وجعله صفة مميزة لأولي العزم خاصة فقال : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[الشورى:٤٣] ، وقال : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥]،وجعله سببا للخير فقال : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

لِلصَّابِرِينَ﴾[النحل:١٢٦] ولا شك أن الثبات، أمام المحن والصبر عليها قوة أخلاقية لا يقدر عليها إلا الأقلية القليلة من المؤمنين الذين إذا أخذوا بميثاق الله صبروا مهما كانت المحن. والآيتان اللتان تبينان ذلك من القرآن هما:

١- قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣].

٢- وقال:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦].

الآيتان من سورة البقرة وهي سورة مدنية، تعنى أساسا بالأحكام الفقهية والسياسة الشرعية، والأخلاق بصفة شاملة، وموضوع الآيتين بالتدقيق هو بيان سلوك التولي وعدم الثبات والصبر إلا عند الأقلية القليلة التي تثبت عند الشدائد وتصبر على الابتلاء، والشخصية المشار إليها هنا هي شخصية بني إسرائيل، هذه الشخصية التي لم يثبت منها على الأخذ بالميثاق المتضمن للتوحيد والإحسان إلى الوالدين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إلا الأقلية القليلة، أما الأغلبية فقد أعرضت عن الحق وانتكست بعد الميثاق:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[البقرة:٨٣] وهذه الشخصية التي اضطربت أحوالها عند مسألة المواثيق في الغالب إلا عند الأقلية، هي نفسها التي تولت ولم تثبت عند الابتلاء بالقتال من أجل استرجاع حقوقهم الشرعية المتمثلة في الوطن والأهل، بصفة عامة إلا عند الأقلية.

وهكذا يتبين لنا أن الثبات عند الشدائد والصبر على المحن والابتلاءات صفة الأقلية من البشرية بصفة عامة، لأن النص وإن كان وصفا لشخصية محددة هي شخصية بني إسرائيل فإن هذا – في نظري – ليس سوى نموذج سيئ للجنس البشري، إذ نلاحظ عدم الثبات و الصبر عند الشدائد هو السلوك العام الذي يسود النشاط البشري، قال الزمخشري :في معنى الآية : « ﴿ **وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ** ﴾[البقرة :٨٣]، أنتم قوم عادتكم الإعراض عن المواثيق »[١]،أي لا تصبرون عليها، ولعله لذلك كانت الآيات القرآنية تكرر بكثرة الحث على خلق «الصبر»، ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾[العصر :٣] ، ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾[البلد : ١٧]، قال ابن عاشور : « جاء في الذكر من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر ... لأن ذلك أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فإن الصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها لأنها لا تخلو من كبح الشهوة النفسانية وذلك من الصبر »[٢] .

وقال قطب : « الصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة ولاقتحام العقبة بصفة خاصة، و التواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته، درجة تماسك الجماعة المؤمنة... فيوصي بعضها بعضا بالصبر على العبء المشترك ويثبت بعضها بعضا فلا تتخاذل، ويقوي بعضها بعضاً فلا تنهزم، وهذا أمر غير الصبر الفردي و إن يكن قائما على الصبر الفردي، وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة وهو ألا يكون عنصر تخذل بل عنصر تثبيت، ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام »[٣] .

إن الآيتين موضوعهما بيان صفة الأقلية بالنسبة إلى الأغلبية في المواقف الصعبة التي تتطلب مجاهدة النفس و التغلب عليها و قهرها، لتثبت على المبادئ الأساسية التي بها وحدها يصلح حال المجتمعات، وتنهض الأمم، ويستقيم حالها سياسيا واجتماعيا وأخلاقيا، وفوق ذلك كله ينالون الرضوان .

---

(١) الكشاف : ١ /٢٩٣ (٢) التحرير والتنوير: ٣٠ /٣٦١ .

(٣) في ظلال القرآن: ٦ / ٣٠ /٣٩١٣ .

والثبات و الصبر على المكاره هو الحل الأسمى لبلوغ المكارم ولتحقيق الأهداف العليا، أما التولي والنكوص على الأعقاب فإنه مجلبة للمذلة والخسران.

وهذه الصفة على أهميتها القصوى صعبة لا ينهض بها إلا الأقلية، قال ابن عاشورفي معنى قوله تعالى السابق: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ** ﴾[البقرة:٨٣] «المعنى أخذنا ميثاق الأمة الإسرائيلية على التوحيد وأصول الإحسان فكنتم ممن تولى عن ذلك وعصيتم شرعا اتبعتموه، والتولي الإعراض و إبطال ما التزموه وحذف متعلقه لدلالة ما تقدم عليه، أي توليهم عن جميع ما أخذ عليكم الميثاق به أي أشركتم بالله وعبدتم الأصنام وعققتم الوالدين وأسأتم لذوي القربى و اليتامى و المساكين، وقلتم للناس أفحش القول وتركتم الصلاة ومنعتم الزكاة... وقوله: «إلا قليلا منكم» إنصاف لهم في توبيخهم ومذمتهم وإعلان بفضل من حافظ على العهد »[1].

والقرآن يكرر الثناء على هذه الأقلية المستثناة هنا في موضع آخر من سورة آل عمران عند قوله تعالى : ﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤] ، ولفظ «أمة» في الآية للدلالة على الأقلية، ولعل القصد هو من أسلم منهم[2] .

إن قول الله تعالى: ﴿ **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [البقرة:٨٣] ، في معرض الحديث عن الأخذ بالمواثيق والعهود والالتزامات،

---

(١) التحرير والتنوير: ١/٥٨٤.

(٢) الكشاف: ١/٤٥٦ ، ٢٩٣.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، في معرض الحديث عن مواقف بني إسرائيل من الجهاد ومستلزماته من طاعة وصبر والتزام، أقول: إن كل ذلك يبين خُلق الأقلية في مجال الشدائد، سواء ما تعلق منها بجهاد النفس وهو الجهاد الأكبر متمثلاً في المواثيق التشريعية عامة، أو ما اتصل منها بمقابلة العدو دفاعا عن الحقوق الوطنية وهو الجهاد الأصغر، متمثلا في التشريعات الخاصة بظروف الحرب والقتال.

ففي الآية الأولى نلاحظ ثبات الأقلية على المواثيق في مقابل إعراض الأكثرية عنها، وفي الثانية، نلمس صبر الفئة القليلة لمَّا فرض القتال وظهر نكوص أكثرهم عن الجهاد.

هذه حقيقة موضوعية ثابتة في سلوك البشرية، لا يمكن نكرانها، ولكن ما السبب في إعراض الأكثرية وتوليها يوم الزحف، والنكوص أمام الالتزامات؟ وما سر ثبات الأقلية في الموقفين؟

● **الأسباب والعلل:**

إن الآيات القرآنية التي تبين الأسباب والعلل كثيرة منها:

١- السبب الأول: الشيطان، ففي سورة آل عمران يبين المولى تبارك وتعالى ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[آل عمران: ١٥٥]، قال الزمخشري: «إن الذين انهزموا يوم أحد كان السبب في توليهم أنهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنوبا فذلك منعهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا»(١)، فهذا هو السبب الأول والرئيسي في التولي يوم الزحف

---

(١) الكشاف: ١/٤٧٣

والضعف والنكوص أمام الالتزامات التعبدية والعلمية والخلقية، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ورعاية اليتيم والمساكين والأقارب وتجنب الفاحشة من الفعل و القول، إنه الشيطان «الذين تولوا... إنما استزلهم الشيطان» ولكن الشيطان يستزل الخلق عن طريق ما كسبوه من الآثام، لأن الآثام يشجع بعضها على بعض، ويغري ارتكاب بعض الفواحش الصغيرة بالكبيرة، قال ابن حجر: «من استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام، والمباح عقبة بينه وبين المكروه، فمن استكثر منه تطرق إلى المكروه»[1] . والذي فعله المؤمنون في غزوة أحد فاستزلهم الشيطان إنما هو تنافسهم في الغنائم حتى عصوا أمر رسول الله ﷺ في الثبات في المراقب التي أمروا بمراقبة العدو منها، قال الزمخشري: «قيل بعض ما كسبوا هو تركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه»[2] .

٢- السبب الثاني: هو اتباع الكفار وطاعتهم، وهو ما يبينه قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ** ﴾[آل عمران: ١٤٩].

فالآية تتضمن تحذير المؤمنين من طاعة الكافرين والمنافقين؛ لأن طاعتهم تورث الردى والخسران في الدنيا والآخرة[3] ، والردى الذي تورثه بشكل أساسي هو التهاون في القيم الإسلامية شيئا فشيئا، حتى يتم التولي على الأعقاب، قال ابن عاشور: «إذا مالوا إليهم استدرجوهم رويداً رويدا، بإظهار عدم كراهية دينهم المخالف لهم، حتى يردوهم عن دينهم؛ لأنهم لن يرضوا عنهم حتى يعودوا إلى ملتهم، فالرد على الأعقاب على هذا يحصل بالإخارة والمال، وقد وقعت هذه العبرة في طاعة مسلمي الأندلس لطاغية الجلالقة»[4] .

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١/١٢٧

(٢) الكشاف: ١/٤٧٣

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/٤١١

(٤) التحرير والتنوير: ٤/١٢٢

وأحسبها هي التي أخذ اليهود – في عصرنا هذا – يستعملونها مع العرب تحت شعار « التطبيع » إذ ليس التطبيع على مستوى العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلا استدراجًا لقبول اليهودي على ما هو عليه من كفر وجحود للحق على نصاعته .

٣- السبب الثالث : هو الترف وقد تحدثنا فيه كثيرا، وإنما نتحدث عنه هنا كسبب للتولي و النكوص، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى :﴿ **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾[البقرة :٢٤٦] : « أخبر تعالى أنه لما فرض عليهم القتال ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب وأن نفوسهم ربما قد تذهب « تولوا » أي اضطربت نيتهم وفترت عزائمهم وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدعة تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب قعدت وانقادت لطبعها، وعن هذا المعنى نهى النبي ﷺ بقوله : « لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموه فاثبتوا » ثم أخبر الله تعالى عن قليل منهم أنهم ثبتوا على النية الأولى واستمرت عزيمتهم على القتال في سبيل الله »[١] .

وخلاصة القول ـ في هذا المبحث ـ أن الأقلية هي التي تتصف بخلق الثبات و الصبر على المكاره والشدائد والبلايا، وبذلك يتحقق لها النصر على الأعداء والانتصار على النفس والشيطان، أما الأغلبية، فعلى العكس من ذلك، والسبب في تولي الأغلبية وانتكاسها اتباع خطوات الشيطان واستدراج الكفار والتأثر بسلبيات الترف .

* * *

● المبحث الرابع : الأمانة والصدق صفة للأقلية :

حفظ الأمانة خلق إسلامي وإنساني رفيع، عليه تقوم الحياة السوية في وجوهها السياسية والاجتماعية، وبغياب الأمانة تحل الخيانة التي تخرب البلدان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٢٤٥